قصّة

وحيدة وبين يديها كتاب

على الجانب الآخر

عائشة أحمد

من بين الريش الثرّ تتبدّى صدور ناهدة، ومن بين الحرير الملتفّ تمتدّ أيادٍ مصافحة، أصابعها مثقلة بالأحجار الكريمة وشبه الكريمة، مصقولة بعناية وبزوايا كثيرة تعكس الأضواء، بريقها يُصوّب باتجاه العيون وعلى الوجوه المصبوغة، والأجفان مخضّبة، ضائعة بين الألوان، مطفية وبراقة، وبرموش مزيفة وكثيفة. تشعرُ بالنظرات تلاحقها في محاولةٍ لأن تضع سعراً على كلّ ما ترتديه، تُقيّم الفستان أولاً، وحقيبة اليد ثانياً، تُحاول أن تتبيّن ماركة الحذاء، وتتحقّق بنظرةٍ جانبيةٍ من نوع ساعة اليد. تشعر بأنّها جد صغيرة ودخيلةٌ على المكان. يتعزّز هذا الشعور عندما تمر بمرآة ضخمة تشغل أحد الجدران، وتلمح طلّتها، كم تبدو هزيلةً في فستانها السّاتان الأسود الذي بهت سواده، ووسط تلك الصالة الشاسعة التي مهما امتلأت بالطاولات والكراسي وسيّدات المجتمع المُترفات والمنفوشات بزينتهنّ - تبدو خاوية. يحط البرد على ذراعيها العاريتين وقلبها يرتعش. تلوم نفسها لأنها طاوعت أمّها ووافقت على المجيء. الحت طويلاً، وهي تتحسر أنّها دون كل صديقاتها «ما عندها بنات سنعات» تدخل الصديقة منهن حفل الزواج وهي محاطة ببناتها، ولا تذهب لعزاءٍ إلا وهن يسبقنها، في النهاية تذعن وتوافق، وتقول لها أمها لحشد حماسها: «سنقابلين رفيقات الدراسة». لكن مَن قال إنها ترغب في رؤيتهن؟ ومن بين كل الأماكن المعقولة، تُقابلهن هناك؟

مع ذلك، عندما رأت انعكاس هيئتها على زجاج باب منزلهم وهما في طريقهما إلى العُرس، أحسّت بأنها راضية عن مظهرها إلى حدٍّ ما. شعرها القصير الناعم تركته مُسدلاً كما هو، من دون حاجةٍ لأيّ تصفيف، ووجهها خالٍ من أيّ مساحيقَ عدا أحمر شفاهٍ داكن. كانت جميلةً على طريقتها الخاصّة، وجهها طويل قليلاً ولها عُنقٌ غزال، تُشبه واحدةً من نساء موديلياني لكنّها فكّرت بأنّها لا بدّ أن تبتاع حذاءً جديداً للسهرة، فحذاؤها الفضّي الأثير يبدو بالياً بعض الشيء، وكعبه العريض أصبح موضة قديمة.

تجلسان على طاولةٍ بعيدةٍ نسبياً. الضوانيّ العامرة تمر عليهما؛ جبال من الحلويات والمكسرات والمشهيات المنمنمة، استغرقتْ صناعتها ساعات وساعات، في أشكال فنيّة ومُعقّدة، لُثلتهم بلقمةٍ واحدة. لقمة سائغة وأخرى حتى إذا جاء وقت العَشاء، وأُزلت الصحون على الطاولات بشتّى أنواع المقبلات واللحوم وأطايب الطعام، كانت الضيفات قد شبعن. وهكذا تُسرع النادلات ليرفعنها كما هي، بالكاد مُست، لإفساح المجال لصنفٍ جديد. أمّا الورود فألوانٌ عجيبة وأشكالٌ غريبة، نوعٌ استوائي وآخر من شمال أوروبا، تُحمل على الطائرات، وتُباع بأبهظ الأثمان، وما هي إلا أيام قليلة حتى تذبل، تنطفئ سريعاً وتموت. يتدلّى التوليب أمامها الآن من وسط الطاولة، بأعناقه الطويلة، مُثقلاً بالحزن. تبدأ الأغاني فجأة. تنبعث عالية جداً، وصاخبة جداً، من السماعات خلفهما وتملأ المكان. تشعر بضربات الدفوف في أحشائها. تَطلُّ مُطربة عليهن من وراء المنصّة، في ثوبٍ بنفسجيٍّ مُزركش. صُورتها على الشاشات مكبّرة، شَعرها فاحم لامع، وحاجباها كذلك، داكنان ويميلان للزرقة، ويبرقان من بعيد. والكحل قاتم وعريض يُحيط بجفونها من أعلى وأسفل. تنتشي بالأضواء والتصفيق والبنات يتدافعن للتصوير معها، يرفعن هواتفهن لالتقاط الصور. تُمسّي على الحضور، ثم تعود إلى موقعها أمام الميكروفون، تنتحنح لثوان، ثم تبدأ وصلتها. تُؤدّي أغنيةً عراقيّة مُوجعة، عن الفراق والصدّ، ولوعة الاشتياق والبُعد، لكنَّ النغم فرايحيٌّ وشبيهٌ. الصبايا يتمايلن على منصّة الرقص في كلّ الأحوال، يستعرضن أردیتهن، آخر الصيحات، من دور الأزياء العالمية رأساً إلى هنا.

تنظر نحوهن ويؤسيها كلّ هذا الجمال المبالغ فيه، كلّ هذه الأجساد المُترعة بالشباب والفائضة بالعافية. يبدو لها وكأنّ صاحبات هذه الأبدان مُثقلات بحملها، لا يعرفن ما الذي يمكنهن أن يفعلن بها، وأين يضعنها. تنتبه لسيدةٍ تتّجه ناحيتهما، تمشي الهُوَينى وهي تكاد تختنق بفستانها المُحكم الذي يضيّق بجسمها الضخم، ويعقود اللؤلؤ المُتدفّقة في صفوفٍ عديدة حول رقبتها المكتنزة. تقف والدتها سريعاً، مُهلّلة ومُرحّبة. تتشابكان أمامها في أحضانٍ وقبلات وتحايا حارّة وأسئلة عن الأهل والصحة والأولاد وفلان وفلانة. تلكزها والدتها، وتصوّب باتجاهها نظرة، تفهم منها أنّها لا بدّ أن تقف بدورها للسلام، وتُقدّمها للصديقة التي تسمع اسمها أول مرة: «هذي بنتي سعاد.. أبوه الكبيرة. لا، لا، الصغيرة هي اللي تزوجت. آمين، آمين. تسلمين يا حبيبتي، وعقبال أحبابك». تتابع الحوار بينهما وكأنّها ليست المعنيّة، تبتسم وعيناها على بُقع الروج الأحمر التي تُلوّث أسنان الصديقة.

تعودان لمتابعة الراقصات وقد ازدحمتْ بهن المنصة، تُعلّق والدتها على رقص صوفي عديدة حول رقبتها المكتنزة. تقف والدتها سريعاً، مُهلّلة ومُرحّبة. تتشابكان أمامها في أحضانٍ وقبلات وتحايا حارّة

الجي افلاطون، زيت على ورق أسود، 1964

وأسئلة عن الأهل والصحة والأولاد وفلان وفلانة. تلكزها والدتها، وتصوّب باتجاهها نظرة، تفهم منها أنّها لا بدّ أن تقف بدورها للسلام، وتُقدّمها للصديقة التي تسمع اسمها أول مرة: «هذي بنتي سعاد.. أبوه الكبيرة. لا، لا، الصغيرة هي اللي تزوجت. آمين، آمين. تسلمين يا حبيبتي، وعقبال أحبابك». تتابع الحوار بينهما وكأنّها ليست المعنيّة، تبتسم وعيناها على بُقع الروج الأحمر التي تُلوّث أسنان الصديقة.

تعودان لمتابعة الراقصات وقد ازدحمتْ بهن المنصة، تُعلّق والدتها على رقص صوفي عديدة حول رقبتها المكتنزة. ثم تُبصر قامةً ممشوقة، تلوّح لها من بعيد. هيئتها مألوفة، تتبختر في مِشيتها مثل عارضات الأزياء، لكنّها لا تتعرّف عليها إما بسبب المسافة، أو بسبب مشارط أطباء التجميل وتدخّلات فنّاني المكياج. كان الرائج هذه الأيام الأنف الصغير بأرنبة مُتعالية، وحواجب عريضة مخطّطة بكثافة ومنفتحة باتجاه الصُّدغين. أما الشِّفاه فمُنتفخة على وشك أن تنفجر. السحنات تتشابه، والتسريحات كذلك، وحتى الفساتين تبدو بقصّات متماثلة، والأساور الذهبيّة هي ذاتها على كلّ معصم، تتراكم الواحدة فوق الأخرى، برّاقة، وبدات الدَّمغة. تتفحّصها وهي تدنو، ثم يخطر لها الاسم فجأة: «ندى»، وتستعيدُ لبرهة صورة ساحة المدرسة المفتوحة، غارقة في الشمس، بأعمدتها الإسمنتيّة الملوّنة، وأروقتها الجانبيّة، تقطعها الفتيات جيئةً وذهاباً، تقيهن من الحر، ومن قسوة المقاعد الخشبية التي تُصلّب ظهورهن طوال ساعات الدرس. كنّ يلجأن للدكك القريبة من المكتبة، تُظللها شُجيرات صغيرة بأوراقٍ مُصفرّة وباهتة، ليلتقطن شيئاً من الهواء في الفسحة. والثّنائير الكُحليّة تُقبل وتُدبر، وفوقها القمصان البيضاء تُهفهف؛ والكركرات مُتواصلة، لا تنقطع، حسابات الربح والخسارة، أو التفكير في انجاب طفل إلى الوجود كي يستمر هذا النوع، إذ يعزّ على الواحد منهم أن يفكّر في البَناء على أي نحو كان.

تنتصر الحرب على الناجين، عندما تصنعُ من كلّ فردٍ منهم إنساناً مُرتاباً يعيش على أنصاف المواقف وعلى أرباع المشاعر، يوزعُ ذاتهُ أجزاءً، وعيهما المشترك القديم بالواقع. هذا لا يعني أنّ أحداً يمتلك تصوّراً أفضل من الآخر عن العالم. لا ننسى أنّ القيم التي اندثرت كانت قد أحضرت الحرب، فيما القيم الجديدة هي نتاجها، بذلك فالحاضر ابن الماضي عبوراً بشرخ الحرب... ليبقى الإنسان أمام اختبار واحد، وهو أن ينجو بنفسهِ - مع من يستطيع ممّن يحيطون بهِ - من الزيف ومن الكراهية. من ذاكرة الدماء والعنف، لا أن يعيد إنتاجها.

تعيدُ الحرب تعريف جلّ الموضوعات التي ينشغل فيها الأدب، الصداقة والحب. ولربما كان الاختلاف بين الأدب والواقع هو اختلاف في استخدام القيم التي يضعها الأدب في تصوّرات تُحافظ على الحد الأدنى من الشعور الإنساني بالآخر والتواصل معهُ، وذلك عبر تعزيز قيم المهزوم وإحيائها، عبر فهم ماضي الشخصيات وإدراك الامها، وتصوير ما فقدته، وما تحاول تلمّسه للعيش في واقعٍ يُجدّد قيمهُ أو يمسخها حرباً بعد أخرى.

(كاتب من سورية)

إحصائية لافتة

في محاضرة افتراضية نظّمها «الملتقى القطري للمؤلّفين»، الشهر الماضي، عادت الناقدة والمترجمة الإيطالية يولاندة غواردي (الصورة) إلى كتاب جماعي صدر في 2016 بعنوان «القصة القصيرة في قطر»، وتضمّن إحصائية لافتة، ضمن مسحٍ لقصص نُشرت في دوريات وصحف بين 1973 و2013، تُفيد بأنّ 95 قصّة منها ألفتها كاتبات، في مقابل 56 لكتّاب. تلاحظ غواردي أنّ ذلك مرّ دون انتباهة نقدية من الدارسين الذين تناولوا الأدب القطري.

إطلالة

كما لو أنّ حرباً لم تكن

أن تنجو من الكراهية

تنتصر الحرب على الناجين، عندما تصنعُ من كلّ فردٍ منهم إنساناً مُرتاباً يُعيشُ على أنصاف المواقف وعلى أرباع المشاعر، يوزعُ ذاتهُ أجزاءً

سومر شحادة

على الرغم من اعتبار الناس سنوات الحرب وقتاً مُستنزَفاً ومسروقاً من أعمارهم، يرجون لو باستطاعتهم التخلّي عنهُ أو التخفيف من آثاره، وصولاً إلى نسيانه، ومواصلة حيواتهم كما لو أنّ حرباً لم تكن، غير أنّ لهذا موانع كثيرة، فالحرب التي يصنعها واقعٌ خَرِب، تصنعُ بدورها وعياً خاصاً يستمرُّ الإنسان بمصارعته. لكن الحرب من منظور الأدب هي مُجرّدُ حدثٍ من أحداث الحياة، وليست اقتطاعاً منها أو شاناً يمكن فصلهُ عمّا سبقهُ وعمّا يليه. لا يتيحُ الأدب للإنسان أن ينسى، وإنّما يساعده على تفكيك أزماته. تنطوي الحرب على الإحساس بالنهاية، التي تُضمرُ بدورها بدايةً ما. يستمر الناجون بالتساؤل حيال النهايات، خصوصاً حيال الأفكار التي أصبحتْ من الماضي؛ إذ إنّ أول ما تذهب به الحروب هو القيم القديمة، لا سيما قيم المهزوم، وإذا كان للحرب أن تُعزّز من قيم أحد فهي تعزّز قيم المنتصر، والتي تُمثّل في الأغلب الجبروت والخديعة. يبحث الناجون عن قيم جديدة تصلحُ للتداول في ما بينهم كبشر، تعيدُ جمعهم إلى علاقات كانت الحرب قد نسفتها. فالكائن الاجتماعي الذي قُطعَ صلاتهُ مع من يحيط به جرّاء الحرب، لا يستطيع الاستمرار من غير بناء صلاتٍ جديدة، وعندما يُفكّر في بناء الصلات الجديدة في العالم الجديد الذي أعقب سنوات الحرب، سوف يَكتشف واحداً من أعمق آثارها. سيجد أنّ الحرب قد نهبتْ كامل منظومته الاجتماعية أو أضعفتها حدّاً صار فيه الناجون من الحرب أناساً شكّاكين، يُصعبُ عليهم الوثوق بالآخرين، أو بناء علاقات حبّ دون التفكير في الخيانة. بل يصعب عليهم أن يبنوا علاقات صداقة من غير حسابات الربح والخسارة، أو التفكير في انجاب طفل إلى الوجود كي يستمر هذا النوع، إذ يعزّ على الواحد منهم أن يفكّر في البناء على أي نحو كان.

تنتصر الحرب على الناجين، عندما تصنعُ من كلّ فردٍ منهم إنساناً مُرتاباً يعيش على أنصاف المواقف وعلى أرباع المشاعر، يوزعُ ذاتهُ أجزاءً، فنجدهُ مُستعداً للتخلّي عن الجميع وفي الوقت ذاته مُحتاجاً لاحتضان الناس جميعاً لهُ. تكرّس الحرب قيمها الجديدة في المجتمع، ما يُفسّرُ ظهور اصطلاحات مثل لصوص الحرب أو أبطال الحرب. ونجد أنّ الوعي يستجيب بدرجات متفاوتة بين شخصٍ وآخر، وفقاً لاختلاف الظروف. أمام حربٍ استمرت لعشر سنوات، يمكن فهم تفاوت القيم بين أحدٍ وآخر؛ فاللص بالنسبة لآخر، إذ إنّ الحرب التي حطّمت قيم أحدهم، قد بنت قيم الآخر. ويخال مراقبهما أنّهما على الرغم من استخدام اللغة ذاتها إلا أنّ كلاً منهما يجيء من منظومة قيم، فصّمتُ وذهاباً، تقيهن من الحر، ومن قسوة المقاعد الخشبية التي تُصلّب ظهورهن طوال ساعات الدرس. كنّ يلجأن للدكك القريبة من المكتبة، تُظللها شُجيرات صغيرة بأوراقٍ مُصفرّة وباهتة، ليلتقطن شيئاً من الهواء في الفسحة. والثّنائير الكُحليّة تُقبل وتُدبر، وفوقها القمصان البيضاء تُهفهف؛ والكركرات مُتواصلة، لا تنقطع، حسابات الربح والخسارة، أو التفكير في انجاب طفل إلى الوجود كي يستمر هذا النوع، إذ يعزّ على الواحد منهم أن يفكّر في البَناء على أي نحو كان.

تنتصر الحرب على الناجين، عندما تصنعُ من كلّ فردٍ منهم إنساناً مُرتاباً يعيش على أنصاف المواقف وعلى أرباع المشاعر، يوزعُ ذاتهُ أجزاءً، وعيهما المشترك القديم بالواقع. هذا لا يعني أنّ أحداً يمتلك تصوّراً أفضل من الآخر عن العالم. لا ننسى أنّ القيم التي اندثرت كانت قد أحضرت الحرب، فيما القيم الجديدة هي نتاجها، بذلك فالحاضر ابن الماضي عبوراً بشرخ الحرب... ليبقى الإنسان أمام اختبار واحد، وهو أن ينجو بنفسهِ - مع من يستطيع ممّن يحيطون بهِ - من الزيف ومن الكراهية. من ذاكرة الدماء والعنف، لا أن يعيد إنتاجها.

تعيدُ الحرب تعريف جلّ الموضوعات التي ينشغل فيها الأدب، الصداقة والحب. ولربما كان الاختلاف بين الأدب والواقع هو اختلاف في استخدام القيم التي يضعها الأدب في تصوّرات تُحافظ على الحد الأدنى من الشعور الإنساني بالآخر والتواصل معهُ، وذلك عبر تعزيز قيم المهزوم وإحيائها، عبر فهم ماضي الشخصيات وإدراك الامها، وتصوير ما فقدته، وما تحاول تلمّسه للعيش في واقعٍ يُجدّد قيمهُ أو يمسخها حرباً بعد أخرى.

(كاتب من سورية)

> الإحساس بالنهاية التي تُضمرُ بدورها بدايةً ما

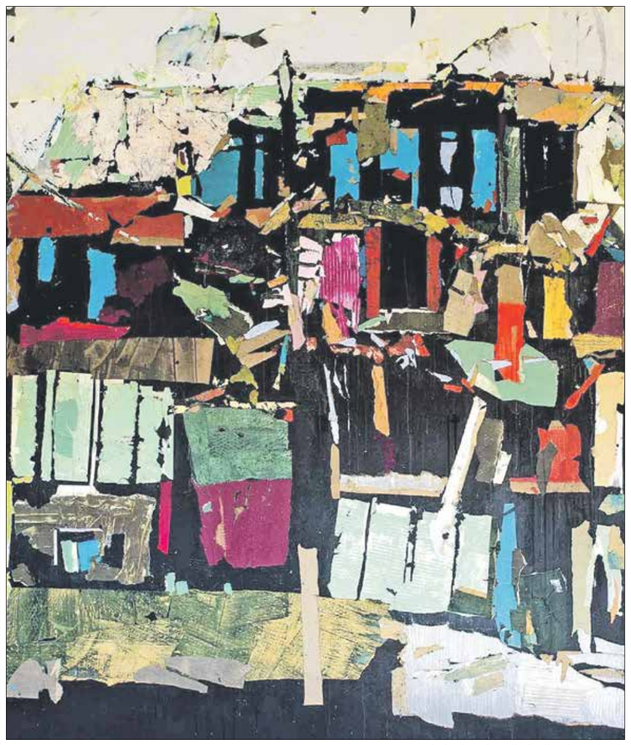

«أرشيف»، تمّام عزام، كولاج ورقي على قماش، 2018

متابعة

الكتاب النادر بعيداً عن الشركات الكبرى ولكن تحت أنظارها

في الحديقة السرية للنشر

يمثّل المعرض الباريسي، الذي ينطلق غداً، فرصة ظهور للعديد من دور النشر ومؤسّسات الطباعة التي يحجبها الصراع غير المتكافئ بين الناشرين

باريس ـ شوقي بن حسن

معروفة هي تلك الصراعات في قطاعات عدة، مثل صناعة السيّارات أو التكنولوجيات الحديثة، والتي تنتهي بابتلاع شركتين أو ثلاث لمعظم السوق. كثيراً ما يُعتبر الكتاب، كمنتوج ثقافي، غير معنيّ بهذه الوضعيات، غير أن الأمر ليس كذلك، إذ يعيش الكتاب في البلدان الرأسمالية نفس تلك الصراعات التي تفضي هي الأخرى لابتلاع عدد محدود من دور النشر للمشهد.

ذلك هو الحال في فرنسا، حيث ستّ مؤسّسات تكاد تحتكر أربعة أخماس السوق وتسيطر على أغلب قنوات التوزيع، فلا تترك لبقية دور النشر إلا أن تكون مؤسسات صغرى. قد يخدعنا في فرنسا وجود تعدّد كبير في أسماء الناشرين، لكن في الحقيقة تعود ملكية هذه الدور إلى الشركات الكبرى، والتي كثيراً ما تفضّل الإبقاء على الاسم التجاري لبعض دور النشر التاريخية.

حيال هذا الوضع، ظهرت في السنوات الأخيرة تظاهرات كثيرة تحاول أن تكون متنفّساً لدور النشر التي تريد الحفاظ على استقلاليّتها من المجموعات الكبرى، وأيضاً من الطرق المعبّدة التي تقترحها المؤسسات الرسمية. من بين هذه التظاهرة «معرض الكتاب النادر» والذي يفتتح غداً الجمعة في فضاء «غران باليه» بباريس، ويتواصل لثلاثة أيام.

لكن، ما هو الكتاب النادر؟ إنه في أبسط تعريفاته كتاب غير متوفّر في المكتبات أو في شبكات البيع الإلكتروني. يعود ذلك عادةً إلى محدودية طبعته الأولى وذهاب النسخ إلى جمهور معلوم عادة من المتخصّصين في مجال ذلك الكتاب. كما يمكن أن يصبح كتابٌ ما نادراً في حالات تعنّت ورثة حقوق التأليف، ما يمنع صدور طبعات جديدة من أحد الكتب. وهناك حالة أخرى تتعلّق ببعض الكتب الفنية أو الموسوعات التي تفرض تكلفتها أن تُطبع بنسخ قليلة، وضمن هذا النوع من الكتب نجد الكثير من طبعات الكتب القديمة التي باتت تجد في السنوات الأخيرة جمهوراً يتابع كل ما هو عتيق، وأحياناً يتورّط في العتيق المزيّف.

> يقدّم لدور النشر الصغيرة والكتب النادرة فرصة أن تكون مرئية

لكن كل هذه التعريفات والتفسيرات، تعوّم ظاهرة تتيح اليوم أن نفهم بعض إشكاليات بيئة النشر، فأن يُنشر كتاب في طبعة محدودة قد لا يكون خياراً لدى دور النشر المستقلّة، إذ إن طبع الكتاب لا يعدو أن يكون خطوة رمزية لا غير، إنه تجسيد لجهد الكاتب كمكافأة معنوية، وهنا يعرف الناشر والمؤلف أن العمل قد لا يعني سوى عنوان ورقم مسجّل في المكتبة الوطنية، ويسلّم الجميع بذلك.

يتيح «معرض الكتاب النادر» لمثل هذه الكتب أن تكون مرئية، وقد يمثّل المعرض فرصة لعدد من دور النشر لتكون تحت أضواء الإعلام، ما يتيح لها إمكانات التطوّر ربّما، ولكنها قبل ذلك هي تحت انظار مؤسسات النشر الكبرى التي لا تتورّع في انتزاع أفضل مؤلّفيها، ولن يصعب عليها أن «تسرق» بعض أفكارها الطريفة في التصميم وخيارات العنونة.

يمكن اعتبار دورة هذه السنة استثنائية بعض الشيء، فقد خدمت المعرض قلّةُ تظاهرات الكتاب خلال هذه الفترة بسبب التوجّسات المستمرّة من عدوى كورونا. هكذا يبدو الفيروس في مصلحة الطرف الأضعف في منظومة النشر الفرنسية.

من دورة سابقة (موقع المعرض)

فعاليات

يتواصل المؤتمر الافتراضي **الاشتراكية الإسلامية في جنوب العالم** حتى يوم غد الجمعة، ويقام بالتعاون بين أكاديميين وباحثين من جامعات ألمانية وبريطانية، ويستضيف باحثين من مصر والسودان وتركيا وبنغلادش وسنغافورة والجزائر، ويتناول كيف فكّر المسلمون في العدالة الاجتماعية والاقتصادية.

يقيم «مركز دراسات الشرق الأوسط» في جامعة كولومبيا محاضرة افتراضية بعنوان **بصمة العصر في ادب الدهر: الفارسية في نهاية الإمبراطورية**، تلقيها الأكاديمية الأميركية الإيرانية **هانا كيا** (الصورة) عند الرابعة من مساء الأربعاء 23 من الشهر الجاري، تدرس العلاقة بين تداول النصوص والأدب العابر للحدود في نهاية الإمبراطوريات الفارسية بين إيران والهند، بدءاً من نهاية القرن السابع عشر.

يتواصل معرض **الفوتوغرافيا في اختبار التجريد** المقام حالياً ضمن «مهرجان نورماندي الانطباعي» في فرنسا، حتى السادس من كانون الأول/ ديسمبر المقبل، ويضم أعمال فوتوغرافيين من بلدان مختلفة، من بينهم **تيسير البطنيجي** (الصورة) من فلسطين، و**هاناكو موراكامي** من اليابان، و**وليد بشتي** من بريطانيا، وآخرون.

تحت عنوان **Process**، يقدّم غاليري «المرخية» في الحيّ الثقافي - كتارا، في الدوحة، معرضاً افتُتح في الخامس عشر من الشهر الجاري، يضم أعمال مجموعة فنانين قطريين ومقيمين في قطر، يتواصل حتى السادس من تشرين الثاني/ نوفمبر المقبل، وهم **عبد العزيز يوسف**، و**بشير محمد**، و**مريم السميط** و**نوار المطلق**، و**فاجو** (اللوحة).

النص الكامل
على الموقع الالكتروني